

« دراسات في العالم العربي »

بقلم الدكتور عزة النص

الحث وحياء الرعي ، وفي اطاره يتصالب المومور واللامعومر .. اقليمنا يشبه التمرة لحمها من الخارج وبذرتها في الداخل ، وموقعا جسر برماني اعدهه الطبيعة للعبور .

وحين نلح في التاكيد على ان بلادنا برزخ ربط واطليم مرور فلا تتوقع الا ان تكون بطبيعة الامر معبرا جنسيا تتعدد فيه السلالات والناصر ، فلا يتولد عن ذلك الا خلط انساني وفوضى اتولوجية لا يستقيم معها كيان قومي موحد ..

ولقد خشيت على المؤلف ان ينقاد لهذا المنحدر الوعر ، فيخالف حقيقة التاريخ ليماشي منطق الجغرافيا . رأيته يتساءل هل للعالم العربي شخصية جنسية مستقلة ؟ ورأيته يجيب باننا ننتمي الى سلالة البحر المتوسط ، وهي اصلا سلالة انتقالية . طبيعة بلادنا جعلتها مجالا للموجات الجنسية المتواترة ، فهي ملتقى البشرية بالضرورة ..

وفي اغلب الظن ان المؤلف الفاضل احس بالمهوى التاريخي الذي بدأ يتهاقت فيه ، فجهد ان يستعيد توازنه ليضيف بان الصحاري المديدة والجبال المنيعه لعبت دور الحناجز المصفي والدرع الواقي فسمحت بالتسرب والتشرب الوئيد وافضت الى تجانس معقول .

وكنت احب للفائز بالجائزة العربية ان يتوسع في تنقية حركات المد والجزر للجماعات البشرية في ازمان التاريخ وما قبل التاريخ، ليفرق بين الغزو والاستيطان .

ومما لا شك فيه ان الموزاييك العنصري لا ينجو منه بلد على الارض ، ولكن حفظنا من التنوع لا يفوق خط الافطار العامرة الاخرى . ومن المؤكد ان سكان بلادنا العريقين لم يشهدوا بعد مولد التاريخ هجرات جماعية غريبة طمست سماتهم الاصيله ، وانما شهدوا في الغالب غزوات عسكرية عابرة سطت على خيرات البلاد حفة من الزمن ثم انكفأت الى بؤرها . والجموعة العربية اليوم من اكثر المجموعات القومية تماثلا ، حتى في الصفات العرقية ، والقلة فيها تتناغم مع الكثرة ارادة وشعورا .

وفي رأينا ان القسم الاخير من كتاب (دراسات في العالم العربي) على نصيب او في من الجدة والعمق . وهو يتناول الجغرافية السياسية للجمهورية العربية من حيث الوزن والتركيب والتنسيق .

ان الوطن العربي يحتل قلب العالم القديم ، وجمهوريةنا تحتل قلب العالم العربي . هذه الدولة الجديدة ليست اول دولة عربية موحدة فحسب ، بل هي ايضا اول دولة عربية تتراعى في عصرنا الحديث عبر اسيا وافريقيا . هي بوابة فارتين كبيرتين ، لان الاقليم السوري هو المدخل الطبيعي لاسيا ، والاقليم المصري يعتبر المدخل الحقيقي لافريقيا من الشمال ، والنيل هو الدهليز الوحيد الى قلب القارة . وبنتيجة ذلك تسيطر الجمهورية العربية المتحدة على تجارة العبور ما بين الشرق والغرب ، بما فيها ما يدخل الى العالم العربي ويخرج منه . فسورية مصر بزي ومصر ممر مائي .

وبفضل قناة السويس وانايب النفط الممتدة من العراق والمملكة السعودية تشرف الجمهورية العربية المتحدة على ٩٠٪ من بتترول الشرق الاوسط الذي يحرك الالة الصناعية في اوربا .

ومن الناحية الاستراتيجية تؤلف الكتلة العربية جبهة الارتظام بين المسكر الاشتراكي والمسكر الراسمالي . ومن هذا الموقع الارتظامي الحرج انبثقت سياسة الدولة الجديدة في الحياد الايجابي ... ومن هنا برزت في العالم السياسي كاحد الامم المتحدة الرئيسية في قوة

في باقة المؤلفات التي فازت هذا العام بجائزة الجمهورية العربية لشجيع الاداب الفنون والعلوم الاجتماعية كتاب جغرافي رقيق الحجم، وضعه الدكتور جمال حمدان من جامعة القاهرة ، وتخير له عنوان : دراسات في العالم العربي .

والكتاب، على ضمور صفحاته ، يتنهج اسلوب الاحاطة في الموضوعات مع التركيز والسكتيف ، ويعالج فضايا يومية نلتنا ، ذات نهل في نظرنا العربية الجديدة ، وهي مصلة متداخلة ومتكاملة . ولعل ابرز ما اخفاه المؤلف على البحث الجغرافي المحض هو اضافة البعد الزمني بحيث تكتسب المعطيات الجغرافية عمقا عبر التاريخ .

حاول المؤلف اولاً ان يستخلص ملامح الشخصية الاقليمية للوطن العربي ويستصفي فلسفة المكان من خذل حقائق الطبيعة ، ويجلو نانيا انعكاس الكيان الكائني على الحياة العربية في غابر ايامها وحاضرها . ونحن نعتز بانها محاولة محفوفة بالمزلق في منطلقها ذاته ، ذلك ان الانسان السيد لا تفلح اصفاذ المحيط . ولكم تمرد وميض العقل العجيب على الاطر المادية وسخر منها وسخرها . والمفكرون القديرون او الامكانيون لا بد وان يحاسبوا المؤلف على هذه البيئة المعاجزة ، هذه الجبرية المبدئية في روز مجتمعي حي متطور بالاعتماد على ميزان وحيد هو الواقع الطبيعي الجامد المستقر . انهم يأخذون عليه اعطاء الشئبة انسان الاول في القدر الانساني والموجه الاجتماعي بدلا من الشئبية والروحانية .

ومهما يكن من امر فان مؤلف (دراسات في العالم العربي) لا يصطنع اية عوامل موهونه حين يقرر ان للعالم العربي وحدة متميزة بين اقاليم العالم ، وهي وحدة ذات تكامل وظيفي ، ولا بد وان يتعين مصيرها في مسار هذا التكامل .

ومن هذه الزاوية يتلمس المؤلف طريقه الى تقويم القوة السياسية للجمهورية العربية المتحدة ، وتخطيط واقفها ، ومستقبلها ، باعتبار انها مرحلة بداية في طريق العودة الى طبيعة الاشياء .

وفي خطوه الفكري المتسق يجتنب المؤلف ان يهبط الى الجزئيات ويصطدم بالناقص ، ويشغل بالشئوذ ، ذلك انه اراد توجيها قويا للدراسات المفصلة ، فاخذ بالاستقراء التجريدي بدما من ظاهر المحسوس ، وتدرج من الشئيت المتناثر الى الناظم العام والقاعدة الكلية .

بهذا النهج المتصاعد يمكن للفكر المفامر ان ينفذ الى مفزى الوجود الجغرافي ، ونحن لا ننكر ذلك . والذي نكره هو تغليب البنيان الطبيعي في محاولة الكشف عن معالم الحيوات القومية . ونحن مع المؤلف حين يجد للوطن العربي شخصية طبيعية متفردة ذات خصائص وملامح تتكرر وتتواتر في جميع اجزائه وتميزه بوضوح عن الاقاليم الطبيعية الاخرى، ونحن معه ايضا في تقويم اثر الموقع ، الا اننا لا نجعله الفاعل الاول في مقومات ارتنا الروحي وتركيبنا الاجتماعي .

يلح المؤلف على ان وطننا بالدرجة الاولى هو اقليم اتصال . واطليم مثالي . انه جبهة التحام ومنطقة التقاء بين وحدات اقليمية اخرى على وجه الارض . في تصميم العالم العربي طبيعيا وبشريا ، في حضارته وثقافته وتاريخه وسياسته ، يطفى ضوء هذا الموقع ..

في الوطن العربي يلتقي القديم الاريبي والحديث الالبي من اديم الارض ، وتتصادم فوقه كتل الهواء الحارة والباردة ، وتجتمع لديه وتنوع محاصيل الشمال ومحاصيل الجنوب ، وتنطوي في حوزته حياة

ثالثة تفرض التوازن بين القوتين المتصارعتين .

ولو جارينا المؤلف في تعليقه الطبيعي للإبسات السياسية لانتبهنا الى مادية جغرافية تعاقب مادية ماركس في التاريخ . ولا يمكن ان تداخلنا الرية في ان الحيداء الايجابي عقيدة حرة وتوجيه عقلاني قبل ان يكون تحتيما مكانيا . والنظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي هما ايضا تنظيم انساني وتواضع اجتماعي لا شأن للطبيعة فيها . والنظم السياسية واتجاهات مجتمعا تبدل باستمرار عن طريق الثورة او التطور، ولا يسبق ذلك البدهاء تبدل جغرافي في موقعها ومزاج ارضها وطبيعة مناخها وشكل تضاريسها ... واذا كان الحيداء الايجابي محصلة رياضية لضرورات جغرافية فلماذا تعتنقه الهند ويوغوسلافيا واندونيسيا ، ولا تأخذ به الباكستان واليونان والفيليبين ؟!

وفيما خلا هذه الظلال الثقيلة تبدو صورة الجمهورية العربية المتحدة في كتاب (دراسات في العالم العربي) ممجبة مرضية . فلقد كان من النتائج الهامة لظهور الدولة الجديدة تغيير جذري في توزيع القوى السياسية داخل منطقة الشرق الاوسط ، واصبحت دولتنا العربية اكبر القوى في المنطقة واهمها بما في ذلك تركيا وايران .

وجمهوريتنا هي ايضا اغنى الوحدات السياسية في الوطن العربي بمواردها الداخلية . ذلك ان راسمالها البشري يزيد عن ثلث القوة البشرية العربية كلها ، وقدراتها الزراعية تعتمد على خامات وفيرة ومتنوعة ، واذا لم تستطع حتى الان كفاية نفسها بالمواد الغذائية ففي مكنتها بلوغ ذلك بعد تمام المشروعات التوسعية في الري واستصلاح الارض البور . والثروة الصناعية في نماء مستمر . والخبرات المعدنية متهيئة بمقدار كليل بسد الحاجات الملح . وهذا الوزن الاقتصادي والبشري يجعل الثقل السياسي في الوطن العربي الى جانب الجمهورية العربية الفتية .

ويلاحظ في التركيب السياسي للدولة الجديدة تجانس داخلي سابغ بمجالاته الانتروبولوجية واللغوية والدينية ، تجانس نوعي وعددي يجمع

ولا يفرق . والاندغام في التقاليد والاعراف والاهداف يربط الاقليات بالكثرية . والشكلة في التركيب السياسي للدولة الناشئة هو وجود الفاصل الارضي بين شطريها الشمالي والجنوبي ، بحيث تبدو كجسم غير ملحوم ومتناسك . يقول المؤلف : نصطدم هنا بما يظهر على السطح نقطة ضعف يحاول اعداء الوحدة ان يجعلوها نقطة سوداء في كيانها ، فالجمهورية العربية في نظرهم تعبير سياسي لا حقيقة جغرافية .

وفي الواقع ان الانقطاع المكاني بين اقليمي الدولة الجديدة يصل الى نحو ١٧. ميلا ، ويقضي بطبيعة الحال الى انقطاع الفطاء البشري . ويمكن ان يذكرنا هذا الوضع الخاص بالباكستان ، غير ان المقارنة تقف عند هذا الحد ، فالباكستان ظهرت كدولة دينية بعد تاريخ دموي ، اما الجمهورية العربية فقامت كدولة قومية وبعد وحدة سلمية ، وهو امر نادر بين حركات الوحيد . والباكستان ظهرت بعملية طرح ، عملياته انكماش او انشطار ، بينما تكونت الجمهورية العربية بعملية جمع ، عملية امتداد ونمو . فالاولى مزقت وحدة جغرافية واقتصادية متكاملة ، وهي تعاني الان من نتائج هذا الانفصال ، بينما الثانية امت وحدة حضارية وتاريخية ومادية كانت مبعثرة ، بحيث لا يمكن الا ان تفيد من هذا الانضمام .

والفاصل الارضي بين مصر وسورية كان برزخا سياسيا بين القطرين عبر التاريخ ، وفي الظروف الحاضرة تحتله اسرائيل وهي اسفين دخيل ، دولة شيطانية بلا تربة ولا جذور محلية ، ولو نزع عنها صوتها الزجاجة المصطنعة لانت اخناقا . هذا الفاصل البيئي جعلته الجغرافيا والتاريخ حلقة وصل ، ولكن الاستثمار حوله الى حاجز فصل . على ان وجود الفاصل الارضي في الوقت الحالي له نتائج خطيرة . فمذ اللحظة الاولى من قيامها اصبحت دولتنا الجديدة بالضرورة دولة بحرية ، اصبح عليها ان تكون قوة بحرية . وحتى في حالة زوال الفاصل تماما فسيظل البحر الطريق الاقصر والارخص بين الاقليمين . وجمهوريةنا تعتمد الان في اتصالها الداخلي على ممر بحري يساعده ممر جوي . الا ان هذه الممرات تمتد في مجالات دولية ، بحيث يمكن ان تهددها اخطار القرصنة المانية والهوائية . ولكي لا يكون الفاصل الارضي عامل ضعف لا بد لدولتنا من امتلاك قوة بحرية رادعة . ونحول اسرائيل الى الاهتمام بالاسلحة البحرية منذ قيام الوحدة السورية المصرية تحول له مفزاه .

على انه في مناقشة القيمة الجغرافية للبين المكاني في جسم الدولة يجب الا نفعل مبدأ هاما ، وهو ان الجمهورية العربية المتحدة بصورتها الحالية دولة مؤقتة اساسا ، بمعنى انها لم تقم كدولة جامعة مائة ، تامة في ذاتها ونهاية ، انها في الواقع ، وهي تعتبر نفسها كذلك ، دولة مرحلة في حركة نمو نحو حركة اكبر .

وفي مجال التنسيق السياسي يذكر الدكتور حمدان ان الوحدة ليست مجرد عملية ميكانيكية ، وانما تهدف الى تفاعل عضوي وتكامل حيوي ، وفي ذلك تكليف نواحي الحياة المادية داخل كل من الاقليمين لتتنسق وتتلاءم مع الاخرى . غير ان المبدأ الاعلى الذي ينبغي ان يهيمن على عملية التكيف هو مبدأ المساواة بين الاقليمين ، فلكل منهما مواهب ومؤهلات يجب ان لا نحاول وادها ، بمعنى ان وحدتنا لا بد وان تكون من نوع التجانس في التنوع، وسينلنا في العمل هو التخطيط الوظيفي لا التفتيش الاعمى .

وينتهي المؤلف بحثه التساون بالتعرض الى الاقوى القومي فيقول : اذا كان التكامل الاقتصادي مطلوبا لزيادة تماسك الاقليمين واندماجها ، واذا كان هذا التكامل يأتي عن طريق مزيد من التخصص ، فان هذا التكامل وهذا التخصص ينبغي الا يجعل كلا او احدا من الاقليمين ممتدا اعتمادا كليا على الاخر في خط انتاجي حيوي او اكثر ، بحيث يتهدد الكيان الحيوي والاقتصادي لهما او لاحدهما بشل ، اثناء الاخطار الخارجية او الحصار البحري ، وذلك على اساس ان التركيب الجغرافي - السياسي للدولة يتركها حتى الان مشطورة بفاصل ارضي .

عزة النص

دمشق

صدر اليوم :

هنري لوفيفر

ازمة الماركسية الراهنة

... كما يراها احد المفكرين الماركسيين بعد ان ترك الحزب الشيوعي الفرنسي .

■ كتاب لا غنى لكل مثقف عن قراءته

منشورات دار الطليعة

بيروت - ص.ب : ١٨١٢ - تلفون ٢٥٧١٨٧